وهنالك ينالهم بما كذبوا العذاب المهين، وقد وصفت من العذاب في الآيات صنوفًا لا عزة فيها لفرعون ولا حول ولا قوة لدفعه عن نفسه، وختمت بقول الله تعالى ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾. فكان وصف إهانته بالعذاب، جزاءً لإهانته بني إسرئيل بتعذيبه الذي نجَّاهم الله منه، وكانت تفاصيل الألم والإذلال الذي يلقاه في عذابه هذا، هي المفعول المعنوي للفعل (ذق) ماذا يذوق؟ يذوق العذاب المهين، بما ظن نفسه من قبل عزيزًا عاليًا لا تناله يد الله. وكان علوه وإهانته إياهم وجهين لاعتزازه بنفسه وشرف مقامه، فدخلت هذه العزة والكرامة في سياق يحطمها ويسحقها، فاستدل به المفسرون على تغير الدلالة من الظاهر إلى ما يلائم سياق الضعة والإهانة، فصيروا العزيز الكريم إلى الذليل الحقير.

فكأن السياق هنا كان منتجًا مستقلاً للدلالة، وتفرد بها في هذا النص، دون أن تكون الألفاظ أو طبيعة التركيب النحوي مساعدةً له، كما قد يحدث في أمثلة أخرى.

وإن كان يمكننا أن نبني فكرةً نظريةً ما على اختيار ابن القيم هذا المثال، فإنه يمكننا أن نقول إن السياق في رؤية ابن القيم للدلالة كان عنصراً أساسيا في تكوين الدلالة، ليس فقط في التحقق منها، لذلك اختار هذه الآية دون غيرها من عشرات الأمثلة التي تكون مساهمة السياق فيها جزئية فقط.

وإذا كانت طبيعة التفسير تميل إلى التطبيق أكثر من التنظير، فإننا ربما لا نجد مئات النصوص التي تشرح طرق الفهم ودور العناصر اللغوية وغير اللغوية في تحديد الدلالة، ولا نجد تعريفات واصطلاحات وشروحًا ودروسًا في الإجراءات، لكننا نجد مئات من الأمثلة والتطبيقات التي لا تخذل الباحث عندما يريد استنباط المنهج أو استلهامه.

وقد ذكر الزركشي عبارة ابن القيم نفسها[1] يقول: «الرابع: [من الأمور التي تعين على المعنى عند الإشكال] دلالة السياق، فإنها ترشد إلى تبيين المجمل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالَّة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، وانظر إلى قوله تعالى ﴿ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير».

(١) البرهان، ص٢٠٠.